وقفة في سلع

وهي المعروفة بوادي موسى او البتراء

للشيخ فؤاد باشا الخطيب

تلك القبورُ ، وماثلُ الاطلالِ صُحُفٌ منشَّرةٌ وذكرُ مالِ
للنفسِ بينهما وحولَ حماهما عظةٌ ومسرحُ عبرةٍ وجلالِ
ان ناحَ مرنجزُ السحابِ عليهما فاستسقِ صيّبَ دمعك الهطّالِ
هي (سلع) والبتراء ترجمة اسمها نسجت عليهِ عناكب الاهمالِ
وادلُّ منهُ ومن معاهدِ انسها زمن يروّع كلُّ ناعم بالِ
فاذا العروبة مجنة ممسوخة واذا المنازل والديار خوالِ
وادٍ تحفُّ به الشوامخُ ممنعٌ في السَّفح اربدُ قالص السربالِ
يندسُّ آونة ويسنح تارة بين الوهاد — ومن وراء جبالِ
متعرجٌ يلتفُّ غير معرّج ومجول حين يهيم كلُّ مجالِ
فلو انّ مرتاعاً بروع مشرّداً ماكان اعجب منهُ في الايغالِ
متجاوب الاصداءِ نسمع كلما اصغيت فيه هماهمَ الاغوالِ
إن صرّحتْ باليأسِ منهُ امدّها املٌ على الايام ليس بسالِ

* * *

شقَّ الاديم ان الصميم مهزولاً في الارض بين حزونة ورمالِ
ذكر القطين فجدَّ يهبط خلفهم يتقحم الاعماق غير مبالِ
قد كان متّجع العفاة ولم يزل بعد العفاء محطَّ كلِّ رحالِ
لمشمّر بين البلاد ، عجيّر نبأ العباد ، وسائح جوّالِ
قلق المجار كأنَّ كلَّ طمرّة سرحُ اليدين عليهِ ذات شكالِ
غبّرتْ تعفّر على الشكيم تغيظاً وتدبّ بين تعسف وخبالِ
تترقب القدر المتاح تلفتاً فتغصُّ حين تهم بالتسهالِ
ويهولها الامد السحيق كأنها تجتاز فوقَ مزالق الاجيالِ

* * *

اشرفتُ منهُ على العصور تمثلتْ ومشيت بين هدى وبين ضلالِ

وشققت جيب الارض من اطرافها حتى انتهيت اليهِ نصفَ كلالِ
وشهدت فيهِ مدينة منحوتةً في الصخر تحت مشيَّد التمثالِ
موصولة حجراتها بفنائها نقراً على عُمُدٍ طِوالِ طوالِ
لبست إياة الشمس في ابوابها وزهت بايوع زخرفٍ وصقالِ
والقصر نحو القصر ينظر شاخصاً نظرَ المدلِّه مؤذناً بزيالِ
ان ورَّع العبرات جاش اتيُّها وَهَمتْ سجالٌ منهُ بعد سجالِ

* * *

ومغارةٍ وقفت حيالَ مغارةٍ ومدرَّج في إثْرِ آخرَ تالِ
يتشعَّث الدرج الشتيت خلالها كخطوط أعسر او دبيب نمالِ

* * *

بلد كأنَّ يداً دَحتْهُ نفرَّ من قُلَلِ الجبال ممزَّقَ الاوصالِ
فهنا الصخور على الصخور محطمتْ وهناك منهُ حقيقة كخيالِ
او كالطلاسم فوق مُهرق ساحرٍ في كلِّ زاوية خبيئة حالِ
موتٌ تطوف بهِ الحياة وموقفٌ خشعت لديهِ طوارق الاهوالِ
تمضي القرون على القرون كأنها وقد انحدرْن اليهِ بضعُ ليالِ

* * *

فانظر الى الاعصار كيف تنكَّرتْ والى القضاءِ يصولُ كل مصالِ
والى الانام تلقُّهم اكفانهم بعد الجهازِ ونضرةِ الآمالِ
وانزع الى الملك المهيمن فوقهم فالعلمُ ملءُ تنفُّس الجهَّالِ
وجدالُ دجَّالٍ وسخف موسوسٍ يتشدقان بطائش الاقوالِ

* * *

تلك الربوع فسَلْ بها آثارها واسمع فثمَّ جواب كلِّ سؤالِ
فلعلَّ عن (موسى الكليم) محدثاً بين التلاع يصيحُ والادحالِ
ولعلَّ (طور سنين) بين هضابها باقٍ كعهدِ الوحي غير مذالِ
واذا اقتبستَ من الطرائف حكمةً فلقد افدْتَ غنىً وحسْنَ مآلِ

* * *

سبحان من يهب الحياةَ تبرعاً من قبل ايِّ رضى وايِّ سؤالِ
متصرف في الكون غير مفرِّط يبني الجديد من القديم البالي
كتب الخلود على الوجود فلم يكنْ في الموتِ غير تحوُّلِ الاشكالِ